

كل قطعة مملكة تقوم بنظام العقل وتحافظ على التقاليد مزاجياً اباحاً كل المراعاة وابدى احترامه السلطة الملكية وتلطف فلم يعتد على الحقوق المكتسبة ولا غالى في شؤونها السياسي الذي يؤدي الى الديمقراطية في الامم الحديثة .

ابعد كل هذا ضعفاً ام قوة ؟ سؤال فيه نظر . يعجب بعض الناظرين من استمرار النهج السياسي والديني في ألمانيا ويرون من اعظم المنافع التي نالت هذه الامة انها لم تأت على قديمها فندكه من اساسه وبهذا لا يستبدون بانها ستظل في تقدمها على النحو الذي نحتة آمنة العوادي والصدمات باحثة وظافرة عن قانون يقبله السواد الاعظم في العضلات الديمقراطية والاشتراكية او الاقطاعية والاكليزيكية . ويرى آخرون على العكس من ذلك بان ألمانيا اليوم وهي على اغراقها في اعداد معدات الحرب وشدة احتفاظها باقطاعاتها وثقافتها في بسط سلطانها وتغاليها في فلسفتها العقلية وولوعها باحراز السلطة واحتجاج انال مزدورية بالديمقراطية او الانسانية بحيث اصحت قافلة بنظريات الافكار في وسط اوروبا الحديثة القديم الذي كان من حقه ان يضمحل الى هذه القرون الحديثة وربما لا تلبث ان يصيبها قريباً تغيير عظيم يكون عليها شديداً . وهذا امر طالما تناوله النظار بالبحث والى الآن لا يسفر عن نتيجة .

اللغات الافرنجية (١)

لمجت بعض الالسن في منافع اللغات الاوروبية ومضارها في مجتمعا عقيب ان قام صاحب المؤيد في الجمعية العمومية في الربيع الماضي وناقش ناظر معارف مصر في وجوب تعليم العلوم في المدارس الاميرية باللغة العربية فكان من اثر ذلك الحوار ان بطلت دروس الاشياء وجعل تدريس علم تقويم البلدان باللغة العربية في المدارس الابتدائية كما شرع بتعليم الرياضيات في السنين الاولى من المدارس الثانوية باللغة العربية ايضاً .

فقام بعض الناس متخذين من هذا الاصلاح حجة على قلة غذاء اللغات الافرنجية زاعمين ان في العربية ما يكفيها من العلوم . على حين كان ما دعا اليه الداعون من التدريس بالعربية لمقصد آخر اريد به احياء لغة البلاد اذا درست العلوم بها واشرب تقوس المتعلمين حب امهم ليغم الذفع مما يتعلمون لا التتميز من تعلم اللغات الافرنجية التي لا يمتري عاقلان

في وجوب تعلمها على فريق كبير من الناس ولا سيما من تصدوا للنفع والتأليف والكتابة على نحو ما يفعل علماء اليابان فيتعلمون الانكليزية كما يتعلمون لغتهم الاصلية .
 نقول تعلم اللغات الاجنبية وما احرانا ان نقول انقائها لان المبادئ البسيطة منها قد لا تفيد المتعلم الا توممه انه اصبح من العارفين . فان تعود علماؤنا قديما من نصف فقيه ونصف صوفي ونصف كاتب ونصف شاعر فما احرانا ان نتعود من ناشيء يتعلم طرقا من لغة لا يستفيد منها ولا يفيد . وليس معنى هذا انه يتحتم وجوبا على كل متعلم للغة اجنبية ان يكون فيها مؤلفا خطيبا كاتباً مترجماً فهذا مناف لسنة الكون ولكن المطلوب ان يعرف الناس في تعلم احدي اللغات الاوروبية القدر الذي يؤهلهم للانتفاع منها في التجارة واعمال الادارة والقضاء والعلم .

ولا مشاحة في ان اكثر من تعلموا اللغات الاجنبية من ابنائنا لم يتقنوها وان حذفوها فلا يكون لهم من المعرفة بلغتهم ما يستطيعون معه ان يعبروا به عن افكارهم وينقلوا اليها ما يعوزها من علوم الغرب وحضارته . بيد ان اللغة وان اتقنها صاحبها لا تنفعه وينفع بها النفع المطلوب الا اذا اضاف اليها علماً او فناً اخصى فيه واللغة آلة لا غاية وان كان من يتقن لغة اوروبية لا ينسئ له ذلك الا بعد ان ينظر نظرة اجمالية في الفنون المتعارفة .
 اما ما يقوله بعض من لا يساعد الوقت على تعلم لغة اجنبية من انه ليس في الثقل من اللغات الغربية كبير امر وان العالم يستفيد من الوجود اكثر من استفادته مما دونه كبار ارباب العقول من ام الحضارة فهذا من الآراء التي يقصد بها الاعتذار عن التقصير ومن جهل شيئاً عاداه . اذ من الثابت المقرر اننا مهما تأملنا في صحيفة الكون لا نستطيع ان ندرس فيه نظام الاجتماع ولا تقنين القوانين ولا الطب والهندسة ولا الفلك والطبيعة والكيمياء وفنون الادب والتاريخ ورسم الارض وغيرها من الفروع الكثيرة التي لا اسماء لها في العربية اذ لم يكن للعرب عهد بها ولا اثم سعادة مجتمع اليوم الا بتعلمها واتقانها .

ومن قال بان اسلافنا من العرب قد اجالوا في هذه العلوم قداح انظارهم ووضعوا فيها ما وضعوا من رسائلهم واسفارهم فهو على صواب وخطاه . وذلك ان اجدادنا قاموا بالواجب من خدمة هذه العلوم في عصر تماسكهم وانبساط ظل دولتهم الا انه انقطعت سلسلتها بعد القرن السادس الى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة وهي القرون التي كانت فيها الامة العربية في غفلة والامم الغربية في انتباه فاخذ الغرب عن الشرق ما عنده من حضارة ووزاد عليها اضعافاً ولا يزال يركض طرف عقوله في مضمار البحث والاستقراء ويعاني من ضروب العلم ما نحن فيه معه اجيال من تليذ مبتدي . بالتهجئة بالنسبة الى ما يكتب الكتاب وبمقد التمهيد

فالامة العربية اذا ارادت النهوض العقلي والعلمي يجب عليها ان تأخذ من كل علم بالسهم الارفر ولا يتم لها ذلك الا بالنقل عن الامم الغريبة وهذا لا يتأتى الا بعد ان يخرج مدارحنا الالوف من الطلبة المتعلمين على الاساليب الحديثة لينشأ لنا منهم عشرات يكونون لنا عوناً على ما ينقصنا من اسباب نهضتنا وما تشد حاجتنا اليه . ويكاد ذلك الى الآن يعد منقوداً بيننا اللهم الا طائفة من اسفار ثقلها بعض المولعين بالعربية وما تيسر للمجلات تعريبه من حين الى آخر من علوم الغرب . وكله دون حد الكفاية بكثير . قال ابن رشد في فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال :

« اذا تقرر انه يجب بالشرع النظر في القياس الفقهي فبين انه ان كان لم يتقدم احد من قبلنا بفحص عن القياس العقلي وانواعه انه يجب علينا ان نتدبره بالفحص عنه وان يستعين في ذلك المتقدم بالتأخر حتى تكمل المعرفة فانه عسير او غير ممكن ان يقف واحد من الناس من تلقاء نفسه وابتداء على جميع ما يحتاج اليه من معرفة انواع القياس الفقهي بل معرفة القياس العقلي اخرى بذلك وان كان غيرنا قد فحص عن ذلك فبين انه يجب علينا ان نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا او غير مشارك في الملة فان آراءه التي تعج بها التذكية ليس يعتبر في صحة التذكية بها كونه آله لمشارك لنا في الملة او غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة واعني بغير المشارك من نظر في هذه الاشياء من القدماء قبله ملة الاسلام .

« واذا كان الامر هكذا وكان كل ما يحتاج اليه من النظر في امر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء اتم فحص فقد ينبغي ان نضرب بايدنا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كله صواباً قبلناه منهم وان كان فيه ما ليس بصواب نبينا عليه فاذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التي بها يتقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالة الصنعة فيها فان من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب ان نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استندناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية ونبين ايضاً ان هذا الغرض انا يتم لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحداً بعد واحد وان يستعين في ذلك المتأخر بالمقدم على مثال ما عرض في علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الخيئة ورام انسان واحد من تلقاء نفسه ان يدرك مقادير الاجرام السماوية واشكالها وابعد بعضها عن بعض لما امكنه ذلك مثل ان يعرف قدر الشمس من الارض وغير ذلك من مقادير انكواكب ولو كان اذكي الناس طبعاً الا يرحي او شيء يشبه الوحي بل لو قيل

ان الشمس اعظم من الارض بنحو ١٥٠ ضعفاً او ستين يمد هذا القول جنوباً من قائله . وهذا شيء قد قام عليه البرهان في علم الهيئة قياماً لا يشك فيه من هو من اصحاب هذا العلم . قال وهذا امر بين بنفسه ليس في الصنائع العلمية فقط وفي العلية فانه ليس منها صناعة يقدر ان ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهي الحكمة . واذا كان هكذا فقد يجب علينا ان القينا لمن تقدمنا من الامم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ان ننظر في الذي قالوه من ذلك وما اثبتوه في كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلنا منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نهيئنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم»

هذا ما قاله الفيلسوف الاسلامي في عصر كان العرب اساتذة العلم في العالم وقوله كما رأيت غاية غايات الحكمة . وما الغربيون الآن بالنسبة اليها الا قدماء متقدمون ويهديهم يجب علينا ان نهتدي في العلوم . وهذا لا بقدر فبا خلقه لنا اسلافنا من آثارهم ايام استعمار عمرانهم واتساع سلطانهم . اما اللغات الحديثة التي تشتد حاجتنا الى الاخذ منها فهي الانكليزية والفرنسية والالمانية . وفي كل لغة من هذه اللغات من انواع المعارف ما لا يكاد يحلم به من لا يعرف لغاتهم .

ولبت شعري اذا كان بعض اهل الغرب والعلوم قد بلغت عندهم ما علمت من الارتقاء القريب يتعلمون لغات الشرق لينقلوا منها الى لغاتهم بعض الكتب التاريخية والادبية والاخلاقية والشرعية ويستعينوا بها على قراءة آثاره وما زير على احجاره افلسنا نحن احرياء بان نتعلم لغاتهم على فقرنا الثابت ونقبس منهم ما يعوزنا من علوم البشر ؟

الا ان ما تفاخر به من علم اسلافنا وحضارتهم العظيمة انما قام باحيائهم مدنية من قبلهم من الامم كالروم والفرس وغيرهم ولم يتأت لم ذلك الا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها فكانوا بذلك احسن صلة وعائد بين ام الحضارة السالفة والام الاوروبية الخالفة . فحضارة الاسلام ان انصفنا قامت بفضل الترجمة والنقلة من اليعاقبة والاسرائيليين والمسلمين لا بايدي علماء الكلام مثلاً وقد كان على يد هؤلاء التشتيت وعلى يد اولئك الجمع وشتان بين المفرق والمجمع . وليس معنى هذا انكار فضل من تحضوا لخدمة الشريعة واللغة في القرون الاولى للاسلام وما في الناظرين من يقول بان الخليل والجاحظ والفزالي والماوردي هم في حسن بلائهم في خدمة هذه الامة دون ابي الريحان البيروني ونصير الدين الطوسي وحنين بن اسحق وثابت بن قرة . وما كان قط اهل الفريق الاول يحرقون علم الفريق الثاني ولا العكس لما وفر في النفوس من ان المجتمع لا يقوم على امتن الدعائم الا اذا اتقن كل ذي عمله

قال الجاحظ : الانسان وان اضيف الى الكمال وعرف بالبلاغة رفاته العلماء فانه لا يكمل ان يحيط علمه بكل مافي جناح بعوضة ابام الدنيا ولو استمد بكل نظار عظيم واستعان بكل يحات واع وكل نقاب في البلاد ودارسة الكتب وما اشك ان عند الوزراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء وعند الانبياء ما ليس عند الخلفاء وعند الملائكة ما ليس عند الانبياء وما عند الله عز وجل اكثر والخلق في بلرغه اعجز وانما علم الله كل طبقة من خلقه بقدر احتمال فطرحه ومقدار مسلتهم .

وقال الراغب الاصفهاني في الذريعة : العلم طريق الى الله تعالى ذو منازل قد وكل الله تعالى بكل منزلة منها حنطة كحنطة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو فمن منازل معرفة اللغة التي عليها بني الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائط ومعرفة اصول البراهين والادلة ولهذا قال (هم درجات عند الله) وقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) وكل واحد من هؤلاء الحنطة اذا عرف مقدار نفسه ومنزله في حق ما هو بصدده فهو في جهاد يستوجب من الله ان يحفظ مكانه ثواباً على قدر عمله لكن قلما ينشك كل منزل منها من شرير في ذاته وشره في مكسبه وطالب لرياسته وجاهل يحب بنفسه بصير لاجل لتفيق سلمته صارفاً عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم وعائباً له فلهذا ترى كثيراً ممن حصل في منزلة من منازل العلم دون الغاية عائباً لما فوقه وصارفاً عما رآه فان قدر ان يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل او ينفر الناس عنه فعل اه .

وان ما في عبارة هذين الخبرين ليدكر بما يجب للمجتمع من مراعاة مبداء التعاون والتكافل الاجتماعي وقد قال احد كبار شيوخ العلم من المعاصرين ان مما يؤخر الشرق في العلم عدم مراعاة ابنائه لمبداء التعاون والتكافل الاجتماعي ففيه من يحسن التفصيل كما فيه من يحسن الخباطة وليس بينهما من يضم اعمال الفئة الاولى للثانية لينتفع بها المجتمع حق الانتفاع ومثل ذلك بين نقلوا لنا العلوم على عهد الحضارة الاسلامية الاولى فقال انه كان يندر ان يجمع المترجم بين معرفة العلم الذي يترجمه واللغتين اللتين ينقل منهما فمن كان يجيد السريانية لا يحسن العربية الا انه كان يترجم ما يفهم بعبارة ركيكة او عامية فيجيء الصححون يصلحون العبارة على الاسلوب العربي فتجيء معرباتهم من اصح ما يكون لفظاً ومعنى وعلى هذا درج ديوان الترجمة في الدولة العلوية الخديوية في القرن الثالث عشر في مصر فكان المترجم غير المصحح ولذلك جاء في القلوه روح العربية اكثر من المصنفات التي نقلت الى العربية حتى في هذا القرن قال وهكذا عرفت دولة العباسيين في بغداد

والأسيين في الاندلس والاسرة العلوية في القاهرة ان تجمع بين من يحسن التفصيل ويحسن الخياطة فكان من هذا الجمع ما كان كما حسن النفع من كل ما تصرف تحت اسم علم .

الشعر الاجتماعي

ليس جميع ما خلد في بطون الاوراق من شعر شعرائنا الغابرين حو في المدح والهجاء والثناء والفضل والنسب والخرابات والزهديات والخلاعات بل كانت منهم ذوو أخلاق طاهرة يتأثرون بمحيطهم ويشعرون بشعور امتهم يشاركونها في آلامها واسقامها ويسعون الى صلاحها واصلاحها . وان ما انتهى اليها من شعر الجاهليين والمخضرمين والمولدين ان يصح اصدار الحكم عليه لقلته ليدعو الى القطع بان معظم الشعراء اميل الى الخصوصيات منهم الى العموميات . وابوالعلاء المعري رأسهم في تشريف الشعر والتفادي من ابتذاله وجل لروميته من الشعر الاجتماعي الصادر عن نفس اية مشرفة علي ما يبعث بجسم المجتمع من الشرور والفورور والقصور ولذلك لم يبرح يضرب على نعمة التدديد وكثيراً يخرج به النقد الى الغلو واي شعر خلا من غلو .

ولو خلت نفس ابي الطيب المتني من المطامع والتغالي في حب الجاه والغنى لساغ ان يكون من مجموع حكمياته ديوان شعر اجتماعي ينفع الامة في تكبير نفوسها وتحسين ملكاتها ولا سيما لو كانت الحكمة مختلطة باجزاء نفسه اختلاطها باجزاء روح المعري وكانت اقواله على قدر افعاله . فقد رأينا ببلاد الدنيا مديحاً بسيف الدولة ثم بهجره ويمدح كافورا الاخيدي لما كان يرجوان يوليه ولاية ثم بهجره افنح هجو لما يش منه فكيف يشق العقلاء باقواله وتفعل اشعاره في النفوس فعلاً محموداً .

واذا تقدمنا الى ما وراء ذينك العصرين ويبحثنا في شعراء اوائل العباسية كابي العتاهية وابي نواس لا نعم ان نقول فيها ما قلناه في ابي الطيب وان كانت الزهديات غالبية علي شعر الاول والخرابات مستحكة من شعر الثاني .

اما من كانوا بعد ذلك المهد من الشعراء كابي فراس الحمداني فانك تجد شعرهم بحسب محيطهم . فنقرأ في شعر هذا علو النفس والشم وشيثاً من روح الاجتماع . وبحق . ما قيل بدي الشعر بملك وهو امرؤ القيس وختم بملك وهو ابو فراس وبحق . اقالوا كلام الملوك ملوك الكلام .